إعداد: أ.د. حميد مجول النعيمي

لم تُعَد المعجمات العربية أحادية اللغة [وأولها لسان العرب والعين فقاموس المحيط ثم مختار الصحاح وأخيراً المنجد الذي صار على تماس قريب من معطيات العلم الحديثة مع محاولته الحفاظ على جذور اللغة الأصيلة] **تفي بغرض فهم الكلمة القرآنية** (ومن ثم النص القرآني) **على أساس مدلولها العلمي الواسع وبخاصة في علم الفلك، إن لم نحاول إستيعاب طرفي المعرفة من** (اللغة والعلم معاً) **استيعاباً متكافئاً مرة، ومتكاملاً مرة وغير منفصل أحدهما عن الآخر بالمرة! ذلك لأن مغزى الكلمة القرآنية أوسع من أي معنى قاموسي، وأعظم دلالة من مدلول أي إنجاز علمي في الوقت نفسه، ليس فيما مضى أو الآن فحسب؛ بل في المستقبل وفي كل وقت وتلك معجزة لا تنقطع لمن تفكّر وتأمّل وتدبّر!!**

١- من اللغة إلى الفلك وبالعكس

(١-١) من الأسماء الدالّة فلكياً في القرآن الكريم:

أ- جاء في المنجد [فلَك- الفلك مدار النجوم ج فُلْك وفُلُك وأفلاك: (الفَلَكُ) من كل شيء: مستداره ومعظم: (الفَلَكُ): موجه المستدير المتردد. التلُّ من الرمل حوله فضاءٌ. قِطعٌ من الأرض تستدير وترتفع على ما حولها، والواحدة (فَلْكة وفَلَكة). ج فِلاك] و[(الفلكي) المنسوب إلى الفَلَك، العالم بعلم الفلك] أي أن كلمة (فَلَك) متعددة المعاني Polysemy ومن الوجوه والنظائر، إلا أن القرآن الكريم أتى عليها في موضعين: في سورة الأنبياء الآية(٣٣): ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وفي سورة يس الآية(٤٠): ﴿وَلاَ الْلَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ بمعنى المدار، وحسب المنجد (مدار النجوم)، إلا أن حركة (الأجرام) أوسع من حركة النجوم، إذ هناك الكواكب تابعة النجوم والأقمار تابعة الكواكب ثم المجموعة النجمية والسدم والمجرّة والمجموعة المجرية... الخ كلها تتحرك على نظام خاص بها: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، يعتمد على القوى الفيزيائية المعروفة: الجذب والتوازن المدهش مما يبحثه فيزيائياً علم الفلك: Astronomy، وفيزياء الفلك Astrophsics.

ولم تأت المعجمات الأخرى بإضافات مهمة، بل تتمايز في العرض كقول مختار الصحاح في الفلك: [و(الفَلَكُ) واحدُ (أفلاَكِ) النُجوم قال: ويجوز أن يُجمع على فُعْل مثل أسَد وأُسْدٍ وَخَشَب وخُشْبٍ)]؛ إذ المهم هنا ربط النجوم بالفلك وليس بالمدارات؛ فهي خطوط حركة فضائية منتظمة السرعة والاتجاه. وللفلك علاقة (وظيفية) بتعابير (الفضاء)و(الكون) على نحو شامل وبالسماء والنجوم والمجرات والمجموعات النجمية أوالمجرية والنظريات المتعلقة بها على نحوٍ مخصوص.

ب- أما (السماء) فلقد نرى صوراً أخرى من التصريف اللغوي لم يلتفت إليها كثيرون، إذ أنهم خضعوا، مثلاً، لصيغة الجمع (سماوات) وما دروا أن السماء نفسها (جمعٌ)، وهي أيضاً: مذكر ومؤنث معاً، ثم هي على معنى السّحاب والمطر فضلاً عن السماء المعروفة! لنقرأ ما جاءت به المعجمات تأكيداً لما ذهبنا إليه:

ب-١: القاموس (المحيط)... [والسماء (مؤنث) و(مُذكر) وسقف كل شيء وكل بيت ورواق كسماويّة وفرسٌ وظهرُ الفرس والسحاب والمطر أو المطرة الجيدة وجمعها: أَسمية وسَمَوات وسُمِيَّ].

ب-٢: معجم (العين) [والسماء سقف كل شيء وكل بيت... والسماء: المطر الجائد، يقالُ أصابتهم سماءٌ وثلاث أَسْمِية، والجمع سُميٌّ. والسماوات السبعُ: أطباق الأرضيين.

والجمع: السماء، السماوات، وسماوة الهلال: شخصُه إذا ارتفع عن الأفق شيئاً والسماوي نسبة إلى السّماوة].

ب-٣: في مختار الصحاح: [(السَّمَاء) يُذكّر ويُؤنّث وجَمْعُه أَسْمَيةٌ وسَماوات. والسّماء كلُّ ما عَلاَكَ فَأظلَّكَ ومنه قيل لسَقف البيت سماء. والسَّمَاءُ المطرُ يقالُ: ما زِلْنا نطأُ السَّماء حتى أتيناكم. والسَّماوَةُ موْضِع بالبادية ناحية العَوَاصم].

ب-٤: وفي المنجد [(السماء) ما نشاهده فوقنا كقبةٍ زرقاء محيطة بالأرض. ما يحيط بالأرض من الفضاء الواسع. كل ما علاك، ظهر الفرس، سقف كل شيء المطر، السحاب العشب. مسكن أرواح الأبرار جمعه: سَماوات وسَمَوات وسمىَ وسمى وأسمية (السماءُ والسماوة) رواق البيت و(سماوة كل شيء): شخصه].

ولقد ذكر القرآن الكريم السماء بوصفها (جمعاً) في سورة فصلت (الآية: ١١-١٢) فقال عزّ من قائل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ

ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾. نرى هنا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾.

وفي سورة البقرة الآية (٢٩) نقرأ في المعنى نفسه قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أما في تذكير كلمة سماء فنقرأ قوله تعالى في سورة المزّمّل الآية (١٧-١٨):

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً * السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾

ثم نقرأ قوله تعالى في سورة الأنعام الآية (٦) لنعلم معنى السماء صار مطراً:

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً﴾. **ثم في سورة هود الآية (٥٢) نقرأ قوله تعالى:**

﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً﴾.

ومن الواضح أن الشائع الذائع في معاملة (السماء) مؤنثاً في الكلام والنّظْمِ وفي القرآن الكريم ما هو غني عن التعريف والتقديم بعد قوله تعالى في سورة ق الآية (٦):

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

فالسماء، إذن متعددة المعاني، متعددة التصريف في آن واحد.

ج- مع المعجم بإيجاز حسب ما ذهب إليه مختار الصحاح: [(نَجَمَ) الشَّيءُ ظَهَرَ وطَلَعَ وبابُهُ دَخَلَ يُقال نَجم السّنُ والقرْنُ والنَّبتُ إذا طلَعَ. و(النجمُ) الوَقْتُ

المَضروب ومنه سُمّي (المُنجَّم). ويقال (نجَّمَ) المال تنجيماً إذا أدّاه نُجُوماً «في أوقات معينة» و(النَّجمُ) من النباتِ ما لم يكن على ساق قال اللّه تعالى، ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾. والنَجمُ الكَوكَب. والنَّجمُ الثريّا وهو اسمٌ لها علَم كزَيدٍ وعَمْرو فإذا قالوا طَلَعَ النجْمُ يُريدون الثُّريّا وإن أخرجتَ منه الألِفَ واللاّم تَنكّر].

في القول (والنجمُ الكوكبْ) نرى من ناحية فيزيائية- فلكية أنه ليس بصحيح إلا على سبيل المجاز العام لأن للكواكب Planet والنجم star تركيبين مختلفين ووظيفتين متباينتين بعد الكشف عنهما، وفي الخلط بينهما (وقع) المنجد في تعريف الشمس: [(الشَّمْسَ) مصدر، الكوكب النهاري المعروف تصغيرها شُمَيْسة ج شُموس..] فالشمس نجم والأرض وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري... الخ كواكب وللكواكب أقمار! وإن النجم متعدد المعاني أيضاً ولكن بتغير تصريفه فضلاً عن الحالة الصرفية الأساس. وفي (القمر)، في المنجد، نقرأ: [كوكَبٌ يستمد نوره من الشمس فينعكس على الأرض فيرفع ظلمة الليل. وهو قمر بعد ثلاث ليال إلى آخر الشهر وأما قبل ذلك فهو هلال ج أقمار. «القمران»: الشمس والقمر. «أقمار العلم وشموسُه» العلماء]. و[(القَمْرَة) لون البياض إلى الخضرة. القمر يكون في الليلة الثالثة].

لاحظنا لفظة (الكواكب) في أول تعريف القمر أو تفسيره والقمر يعرّف نفسه فلكياً تابع للكوكب فهو كويكب على المجاز؛ لأن ثمة كويكبات صغيرة Minor Planets لها صفات فلكية وفيزيائية أخرى كذلك هناك الكويكب أو النجيم Asteroid(Planetoid) بصفات مغايرة.

د- لا يشترط بعد هذا العرض المقتضب توافق التوثيق المعجمي مع التوصيف العلمي بإزاء اللفظة التي لها امتداد فلكي تركيبي أو وظيفي؛ إنما النص القرآني الكريم (يقدّر) الحالة (الدلالية) التي يشاء ومنها نبدأ رحلة التحليل والمقارنة

والاستنباط، ونحسب أن ذلك هو النهج الصحيح، والمتداول العلمي في بعض الأحيان ليس له (جذر) لغوي أصيل، فهو إما دخيل أو مضاف، كما في كلمة (جُرْم)، من الأجرام السماوية، فالجرم هو في الفلك (شبه نجم بزحزحة حمراء عالية) ويرمز له QSS من الكلمات Quassi - Stellor - Source إلا أن من العسير على (كل قارئ) فهم هذا المضمون إن لم يكن من المتخصصين، وإن كلمة (جُرْم) نفسها لم تذكر في القرآن الكريم (كما كلمات ومصطلحات أخرى) وإذ لم يذكرها بمعنى (فلكي) معجم مختار الصحاح بل قيدها بالجريمة والذنب كقول فيه –حسب المعجم– [(جَرَم) و(أجرَمَ) و(اجترَمَ) والجِرْم بالكسر الجسد و(جَرَمَ) أيضاً كسَبَ وبابهما ضربَ..] فلقد يفيد ذلك في تحديد تداول الكلمة فلكياً على أساس (عُرفيّ) حسب. أما من الناحية العلمية فيسمى: شبه النجم الراديوي: كوازار وجمعها كوازارات، وبلغ عدد المكتشف منها حتى الآن أكثر من (٢٠٠٠) كوازار، وهي أجرام سماوية ذات طاقة عالية جداً، وتبتعد عنا بسرعة عالية جداً (أي زحزحتها نحو الأحمر كبيرة).

هـ– ذكر القرآن الكريم كلمات ذات دلالة مصطلحية في علم الفلك، إما إزاء (شيء) معين أو وصف ظاهرة معينة، فعندما يذكر الشهابَ –Meteor– فإن المنظور الفلكي يعالج هذا الذكر على سبيل المفرد أو الجمع (زخة شهب Meteo Shower)، والنيزك وإن لم يذكره القرآن مباشرة إلا أنه قرين الشهاب ذكراً: الشهب والنيازك، والنيزك Meteorite (تصغير شهاب بالإنكليزية) ولكل منهما صلة بالآخر. ولا جدوى في مطابقة التوثيق المعجمي (اللغوي) مع التعريف العلمي الفلكي للمصطلح! وذلك بسبب المعطيات العلمية التي توفرت على تقادم الأزمان وبقاء التفسير المعجمي من غير (تحديث) فيحصل الخلط واللبس في استعمال المصطلحات، أو أن يجري (التحديث) على أسس ليست دقيقة تماماً، نقرأ في مختار

الصحاح: [.. و(الشّهاب) شُعْلة نارٍ ساطَعَة وجمْعُه (شُهُب) بضمّتين و(شُهْبان) كحساب وحُسْبان] ونقرأ في المنجد: [(الشهاب) كل مضيء متولد من النار. ما يرى كأنه كوكب انقضى. الكوكب عموماً. السنان لما فيه من البريق ج شُهُب وشُهبان وأشْهب] وهذا يكفي لدارس اللغة والتفسير في الواقع إلا أنه غير دقيق لدارس الفلك أو فيزياء الفلك. فإذا رجعنا إلى تعريف (الشهب) علمياً نقرأ: [والشهب عبارة عن جسيمات صخرية أو معدنية التركيب متباينة في أشكالها وحجومها، تتراوح ما بين الحبّات الصغيرة مثل حبة الرمل والصّخور الضخمة التي قد تبلغ كتلتها آلاف الأطنان. وعند مرور هذه الكتل السماوية في الغلاف الجوي الأرضي تزداد مقاومة الهواء لها فتتولد من جراء ذلك عملية احتكاك ميكانيكية بين جزئيات الهواء وجزيئاتها السطحية، فترتفع درجة حرارتها وتزداد بازدياد سرعتها حتى تحترق وتتطاير جسيماتها مولدة ذيلاً متوهجاً وعلى شكل بريق ناري في كبد السماء وعلى ارتفاع (١٠٠) كم تقريباً. إن أغلبها يحترق في الجو وقليل منها يسقط على سطح الأرض، وفي هذه الحالة تدعى (بالنيازك). أي أن النيازك تمثل الأجزاء الساقطة من الكتل السماوية على الأرض وغير المحترقة في الغلاف الجوي ويمكن مشاهدة العديد منها في متاحف العلوم (دلت الإحصائيات الرياضية على أن هناك حوالي ٥٠٠ نيزك يسقط على سطح الأرض سنوياً، وبما أن ٣٠٪ تقريباً من سطح الأرض هي اليابسة، لذلك فإن ١٥٠ تقريباً يسقط على اليابسة ولكن يمكن الكشف على حوالي (١٠) منها فقط موزعة على اليابسة. أي أن سقوط النيازك نادر جداً في المنطقة الواحدة)].

أما ما ذكر في القرآن الكريم لكلمة (شهاب) فإنه يتوافق، بل هو أصل كل تصور لأي تفسير علمي، مع التعليل السابق تماماً. ففي سورة الجن الآية (٨) نقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾ لذلك

يتعذر على أحد ما إختراقها من دون (إذن) و(وقاية) معاً.

و- في كلمة (بُرج) وجمعها (بروج) على معنيين: [الحِصْن رُكنهُ وجمعه (بروج) و(أبراج) وربما سمي الحصن به. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ في النساء (٤٨)، والبرج أيضاً واحد بروج السماء..] في المختار. لم يتضح المعنى جيداً في جملة: (واحدُ بروج السماء) لمن لا علم له بالفلك: وآخرُ: [(البُرْج): الركن، الحصنُ، القصر... ج بُرُجٌ وأبراجٌ وأبْرِجَةٌ. (البرْج) أيضاً أحد بروج السماء... وهي اثنا عشر: الحمَل والثور، والجوزاء، والسرطان والأسد والسنبلة (العذراء) والميزان والعقرب والقوس والجدي والدّلو والحوت..] في المنجد، أما مقابلها الفلكي فهو: كوكبات نجمية Constellations [حيث تُزيّنُ السماء بصور شتى شاع فيها تعدد الحيوانات وأبطال الأساطير. أي أن النجوم تتخذ بعض التجمعات الظاهرية، وكل مجموعة متقاربة من النجوم يربطها شكلٌ معينٌ، ويسميه الفلكيّون كوكبة نجمية أو تشكيلة نجمية] وفي ذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً..﴾ في الفرقان الآية (٦١).

ز- يذكر القرآن الكريم على نحو محدود أسماءً بعينها ضمن النوع الواحد، كما ذكر اسم النجم (الشعرى) والنجم (الطارق) مثلاً من اسم نوع النجوم:

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ سورة النجم الآية (٤٩) -لاحظ سورة النجم- والشعرى نجم عربي أصيل أطلق عليه: Scera بالإنكليزية وكذلك اسم (الطارق) فهو الآخر نجم عربي أصيل يكتب بالإنكليزية Tarik مما ذكره القرآن الكريم قسماً ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ سورة الطارق الآيات (١-٣)، لاحظ تعريف الطارق في الآية نفسها جواباً للقسم في أنه النجم الثاقب. أما في المعجمات فنقرأ عن (الشعرى) في المختار: [و(الشعرى) كوكب وهما شِعريان: الغُبُورُ والغُمَيْصاء. تزعم للعربُ أنهما أُختا سُهَيْل] وسُهَيْل

نجم أيضاً، وهو عربي أصيل الاسم، أطلق عليه بالإنكليزية اسم Canopus. ويقول المختار في الطارق: [و(الطارق) أيضاً النجم الذي يقال له كوكب الصُبْح..] أما المنجد فيقول في (الشعرى): [الكوكب الذي يطلعُ في الجوزاء وطلوعه يكون في شدة الحر..]، والجوزاء هي البرج الثالث ولم يذكر عن (الطارق) اسمه النجمي الفلكي؛ بل اكتفى به فاعلاً من طرَقَ يطرُقُ إذ قال فيه (الطارقُ) الآتي ليلاً. ج طُرّاق وأطراق إذ لكل منهما: الشعرى والطارق موقع متميز في متداول الناس، وإن الإشارة إليهما قد تفيد في التنبية والاستشارة معاً، وهو كذلك بحق.

ح- ثمة كلمات ذات مدلول فلكي إلا أنها مرتبطة بظواهر فلكية أساسية كما في قوله تعالى (الأهلة) في: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ..﴾ البقرة الآية (١٨٩) وقوله تعالى: (خسف) في ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ..﴾ في سورة القيامة الآيات (٧،٨،٩) فإن بحثها يأتي في سياق المباحث الخاصة بالظواهر الفلكية في القرآن الكريم، وأما كلمة (الأرض) ثم (الليل) و(النهار) و(سنة) فإنها كلمات ستأتي حسب حاجة المباحث وفيها كثير من التأملات المكملة، والله المعين.

(١-٢) من الأفعال الباعثة عل التأمل فلكياً في القرآن الكريم:

أ- من متابعتنا في (١-١-ب) إزاء مدلول كلمة (سماء) وصرفها النحوي ننتقل هنا إلى (فعل) (نشوء) السماء لنتأمل دلالاته الإعجازية ومستويات العلاقة فيما بينها، إن كان ذلك ممكناً أو متاحاً، في الآيات المباركات الآتية:

١- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦]. أي أن السماء مخلوقةً خلقاً، من الفعل خلق يخلق، ثم:

٢- ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ ايَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٢]. أي أن الفعل (جعل) حل محل (خلق) وتلاه في الأجزاء والزمن أو صاحبه، ثم:

٣- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، أي أن فعل البناء تم من شيء أو أشياء وهو ليس رديفاً (لخلق) أو(جعل) بل ربما نظيراً، في بعض جوانبه، لهما، ثم:

٤- ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٧]، وفعل (الرفع) بمعنى وجود (المرفوع) قبلاً ثم حصل رفعه أو أن المعنى: صنعها وجعلها، ثم:

٥- ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩]، أي أن (السماء) (لفظةٌ دالة إلى صيغة الجمع هنا) كانت موجودة على غير إنتظام أوعدد فسوّاهن اللّه تعالى سبع سموات طباقاً، ثم:

٦- ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ (....) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢]. (فقضاهن) من قضى يقضي: قرر وأجرى بما هو موجود (دخان) لتصير السماوات السبع التي ترى منها (الدنيا) بالعين المجردة مع ما فيها:

٧- ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦]. للتذكير والتبصير.

- سبعة أفعال هي: (خلق، جعل، بنى، رفع، سوّى، قضى، استوى إلى) اقترنت بالسماء من حيث نشوئها أو وجودها الأول وما يتبعه بدلالته الفلكية، أي أن البحث في (قبول النشوء) يدخلنا في قضايا Propositions (فلسفية) بعيداً عن (العلم)، فكل ما ليس بحلٍ ولا يخضع لمسلمةٍ، فهو فلسفة، وكل ما يخضع للدرس والتمحيص والتفكير أو التجريب ويُفضي إلى حلٍ أو تعريفٍ أو قانون، فهو من العلم، إلا أن كلمة إختيار هذه الأفعال لصياغة تلك الآيات الكريمات ليست

خارج الانتباه أو التبصر، وأن تطبيق مبدأ المادة هي على نحو نهائي أو قريب من ذلك يدخل دراسات العلم التطبيقي – الفلك وفيزياء الفلك– ولا ضير في ذلك بالطبع. ولقد نخرج من المحتوى الذاتي (للفعل) إلى محتوى السّياق الذي هو فيه فيتغير معناه المعجمي تماماً! فنجد (الشمول) في معنى (الخلق) في الآية (١)، وإن شبه جملة (وما بينهما) تعطي الخلق بعداً فلكياً لا محدوداً أو لا نهائياً في الواقع. أما (الحَصْر) فنراه في الآية (٢)، ثم (الوصف) بالقوّة في الآية (٣)، ثم (الدقَّة) والاتقان في الآية (٤) ثم (القدرة) و(الإرادة) في الآيتين (٥)، (٦)، (فالجمال) والبهجة في الآية (٧) مع كل المعاني السابقة! أي أن (نشوء السماء) ليس صنعاً مجرداً، بل ارتبط (بغايات) مكملة تعكس ما يريده اللّه تعالى للإنسان في رؤياه إلى القبة الزرقاء (الكرة السماوية) وهو واقف على الأرض يعبد ويعمل.

– تبدو مرحلة (ما بعد نشوء السماء) خلقاً وإبداعاً، على صيغ أخرى من الآيات ذات الجمل الفعلية الساحرة إذا تأملنا معانيها ودلالاتها.

أ– ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [الحج:٦٥] بمعنى منع السماء من السقوط، أو أنها لا تسقط، على الأرض إلا بمشيئته، فقرينة الفعل (يمسك بالسماء دالاً إلى الفاعل المستتر: اللّه سبحانه، جمالٌ بلاغيٌ لا شك فيه، إلا أن لغز الفلك وفيزيائه تمنحه بُعداً علائقياً –تفسيرياً– في حالتي (الاستقرار) الدائم و(الخلل) المفترض أو المتخيل المُفضي للسقوط عبر (اضطراب) قوانين الجذب مثلاً، ثم:

ب– ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ [النور:٤٣]، نرى شبه جملة (من جبال)، ثم (من بَرَدٍ) ونتبع موقع الفعل: (وينزّل) في جملة (وينزّل من السماء) التي وردت أو ترد كثيراً في القرآن الكريم بصفة السماء (سحاباً) راجع (١–١–ب) أو بصفات أخرى، وباستعمال ثلاث حالات بحرف جر واحد: (من)، تعود كلها إلى الفعل ينزّل وفاعله المستتر: (اللّه سبحانه)، فإن لفظة السماء خرجت من دلالتها الفلكية

المجرّدة إلى مدلولٍ جمالي مدهش أنْسانا واقعها الفلكي تماماً!

جـ- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

إذا قامت السماء فكيف تقوم الأرض؟! وإذا تمعنا في مفهوم (قيام) السّماء عجزنا عن إدراك المراد على نحو أكيد ودقيق، بل هو تفسير من تفسيرات! [أن (تقوم) السماء]: أن (ترتفع)، أن (تُبنى)، أن (توضع)، أن (تُسَوّى)، أن (تقضى)، ... الخ بكل ما فيها من نجوم وكواكب وأقمار.. الخ أما الأرض فإن قيامها ليس فلكياً إلا من زاوية موقعها في المجموعة الشمسية ومن ثم المجرة والمجرات المحلية فالكون، أما (بنيتها) التركيبية و(توازنها) البيئي و(توزيع) الأرض بدلائل رحمة اللّه، ولكن:

دـ- ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩]، هنا يتغير تأثير الفعل في (معنى) السماء تماماً! نحاول قراءة الآية أكثر من مرة ونحاول معالجة مغزاها ومعناها بوجود حالتين مختلفتين تسبقان شبه جملة (من السماء) المكررة، ثم يتعين علينا إقران الأرض بها في الحالتين معاً! سبحان اللّه، إنه تركيب يُجاوز كل قدرة على التعبير الفصيح والبليغ عند البشر بحق، ثم هو يمنح معاني ليست متاحة من غير تأمل وتفكّر، حتى إذا سألنا: ماالمقصود بـ: (كسفاً من السماء) بالتسكين والفتح وقلنا (قطعاً من السماء) أخذتنا دهشة (الاختصاص)! إذ ما هي هذه القطع (فعلاً)؟ هل هي النيازك من بقايا الشهب (راجع ١-١-هـ) أم هي جزء من مادة السماء؟! وما هي مادة السماء؟! هل هي واحدة؟! صلبة؟! إنها موضوعات للبحث في (الاختصاص) في ظل هذا التعبير (العظيم-البسيط) وبخاصة عندما تتحول كلمة (كسفاً) بمعنى (قطعاً) إلى مجموع (مساحة السماء) كلها في قوله تعالى:

هـ- ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢].

أي بسقوط السماء كلها على شكل قطع متناثرة على الأرض ومَنْ فيها وما فيها.

- ينسب مختار الصحاح مفهوم (المادة) إلى أصلها اللغوي العادي في الثلاثي (مَدَدَ) ومنه: مدَّة فامتد من باب ردّ. و(المادّةُ) الزيادةُ المُتصِّلةُ...) ولا يربطها بأي مفهوم فيزيائي قديمٌ أو حديثٌ! إلا أن المنجد، وهذه حسنة له، ينطلق في تفسير المادة على نحو يقترب من الحديث والتحديث فيقول: (المادة. مؤنث المادّ. ما يتركب منه الشيء وتقوم به «المادة الأولى»: هي التي يحصل الشيء معها بالقوة ج مواد ومادّات.

«مواد اللغة» ألفاظها «مواد العلم»: مباحثه] ثم يقول: [(المادّي) نسبة إلى المادة، القائل بأن لا موجود إلا المادة] **وقوله هناك بأن المادة:** [ما يتركب منه الشيء ويقوم به) يقودُ إلى أسئلةٍ أخرى إذ ما هو (الشيء) مثلاً؟! وهل السماءُ (شيء)؟ وإذا كانت شيئاً فهل هي كالأشياء المألوفة من المركبات والمخاليط والعناصر؟! على أي حال، إن ذكره لتعريفٍ ما، من اللغة، إزاء (المادة) شيء حسن لأن شبه جملة (ويقوم له) أنفع لنا من (ما يتركب منه الشيء) بل ينطبق على فحوى لفظة السّماء أكثر مما يتوافق معها مضمون: (ما يتركب منه الشيء) على صحته (راجع الآية السابقة (ج)]، **ولكنّ علم الفلك وفيزياء الفلك لم يقفا عند هذه التعاريف الأولية «القديمة» بل بتطور العلوم الأساسية والرياضيات على نحو خاص أصبحت الدراسات الكونيّة تحمل لغة معقدة لا يتعامل بها إلاّ متخصصون، نقرأ هذا المقطع المتعلق بالمادة ونرى:** [وبالرغم من محاولات بعض العلماء مثل آينشتين Einestein وأدينكتون Eddington تفسير المادة، بأنها الشيء الذي يُحدثُ تحدباً في المتصل الزمكاني Space - time الرباعي Four Dimensional Continuum. وتفسر

المسارات المقوّسة للضوء والتوابع عند مرورها بجوار الأجسام المادية، بأنه مظهر لهذا التحدب، فهي بذلك تختصر الكثير في حقائق الكون بفضاء زمكاني متصل Space Time Continuum، تنتشر على سطحه التجعدات] **هذه هي لغة علم الفلك الدقيقة والدقيق معاً! إن السماء (أشياء) وليست (شيئاً) واحداً سواء أخذت على صيغة المفرد أو الجمع (١-١-ب) وكل شيء في السماء جزء منها، أو جزء من نظامها الكلي ومحتواها الشيئي، من النجوم والكوزارات والسدم والمجرات وغيرها مما بين المجرات من** (مادة هي: مادة ما بين النجوم Inter-stellar matter Inter galactic matter أو مادة ما بين المجرات إلا أن علم الفلك يأخذ (المنظور) **العام للسماء فيصفه، بالنسبة للرائي من الأرض، كرة سماوية** Celestial Sphere [عندما ننظر إلى السماء في الليالي الصافية نلاحظ عدداً من الأجرام السماوية المتباينة في لمعانها والمختلفة في ألوانها وكأنها متحركة من الشرق إلى الغرب، وعليه نشاهد السماء وكأنها كرة واسعة الأطراف محيطة بنا وكأن مركزها هو عين الراصد. إن هذه الكرة الوهمية التي تتراءى لنا وكأننا مستقرون في مركزها هي الكرة السماوية (القبة السماوية)، التي يمكن تصورها بانها كرة مجوَّفة بحيث تقع الأرض في مركزها، وتنتشر الأجرام السّماوية على سطحها الداخلي]، [وفي الحقيقة فإن ظهور السّماء وكأنها كرويّة ناتج من الانحناء الكروي للأرض. أما الحركة الظاهرية للأجرام السماوية من الشرق إلى الغرب فهي مجرد خداع بصري، لأن الأرض هي التي تدور حول محورها من الغرب إلى الشرق. ومن أجل ذلك يتغير وجه السّماء بين حين وآخر بالنسبة إلى أي راصد على سطح الكرة الأرضية] **ويمكن التعرف على أنظمة حركة الأجرام** (خلال مجراتها) **بسرع واتجاهات مبحوثة فلكياً وفيها أوعليها تبنى** (نظريات) **كثيرة بتفسير نشوء الكون ومصيره أيضاً. إذن فإن مضمون الآيتين** (٤) **و**(٥) **على نحو جزئي أو كامل، هو من مستحيلات التحدي البشري أمام قدرة اللّه تعالى في** (إحْكام صنعه) **السّماء. وكما يقال: إن**

(التمني) هو طلب المستحيل فإن سقوط (السماء) هو توقع المستحيل أيضاً. لأن (الواحد) الصغير لا يستوعب الآلاف الكبيرة والصغيرة، والأرض كوكبٌ واحدٌ صغير، والسماء تغصُّ بملايين الكواكب والنجوم والمجرات فكيف يسقط (الكل الكبير) على جزء من الجزء الصغير؟! تلك هي إحدى معجزات اللفظ القرآني العظيم بإزاء الفلك بوصفه علماً وحذاء الإنسان بوصفه دائم الكشف والتعلم، أن يخاطب الإنسان بالممكن تصوراً والمستحيل حقيقةً وكأنهما شيء واحد في مدارك الإنسان وعلمه! مع أن اللّه سبحانه قادر على كل شيء.

ب- بربط إتجاه حركة الأرض بما يخيل للإنسان أنه حركة السماء -أعلاه- نذهب إلى آية (رئيسية) أُخرى في مضمونها الفيزيائي والفلكي ولكن مع الأرض هذه المرة كما يقول سبحانه وتعالى في سورة الغاشية الآيات (١٧-٢٠): ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ونتمعن في شبه جملة (كيف سطحت) المرتبطة بالأرض ونحاول تدارك موضوع التسطيح والتسطح في الأرض مقابل كرويتها ما دام بعض المفسرين أخذ على علماء الهيئة (خطأ) كروية الأرض إذ قالوا:

[(وإلى الأرض كيف سطحت) أي بُسطت فيستدلوا بها على قدرة اللّه تعالى ووحدانيته وصدرت بالإبل لأنهم أشد ملابسة لها من غيرها وقوله سطحت ظاهر في أن الأرض سطح وعليه علماء الشرع لا كرة كما قال أهل الهيئة وإن لم ينقص ركناً من أركان الشرع].

- يكاد المرء، في هذا العصر وعلى أبواب القرن الواحد والعشرين، يستغرب هذه المفارقة الواقعة بين (اللغة) و(الفلك): فلقد أصبحت (بدهية) كروية الأرض

ليس بها حاجة إلى برهان تجريبي (مختبري) لأنها (مصوّرة) من الفضاء وبمائها ويابسها، بغاباتها ومدنها على شكل (كرة) يراها المشاهد في كل يوم من على الشاشة الصغيرة تقريباً!! إلا أن التقيد بمضمون الفعل المبني للمجهول، وفاعله اللّه سبحانه، (سُطحت)، مجرداً من فعل (النظر) (إلى) الوارد في أول الآية يبعد المفسرين عن التفقه بالكلمة واستخلاص مدلولها الصحيح تماماً، لأن اللغة الفصحى تقول: (نظره ونظر إليه: أبصره وتأمّله بعينه) و(نظر في الأمر: تدبّره وفكر فيه يقدّره ويقيسُه) في المنجد، و(النظر والنّظَارُ بفتحتين تأمّل الشيء بالعين. وقد (نظر) إلى الشيء). في المختار، ثم المعجمات الأحادية تذهب كذلك وإن (نظر في) كتفسير لـ (نظر إلى) مسألة ممكنة في (خلق الإبل) و(رفع السماء) و(نصب الجبال)، إلا أن استنادنا إلى هذه (النظرة) في تفسير رؤية الأرض بالمسطحة لهو صحيح تماماً، لأن (مدى) رؤية العين (محدود) جداً مقارنة بسعة سطح الأرض، أي أن تقوّس الأرض لا يظهر للرائي على الإطلاق بالعين المجردة وفي هذه حكمة اللّه سبحانه بإخفاء (كروية الأرض) لتعذّر إدراكها بالعين، وذكر التسطيح بسهولة تمييزه بها، حتى استطاع الإنسان التحليق عالياً في الفضاء ليرى بأم عينيه كروية الأرض [بل أن الأرض ليست كاملة التكور، إذ تمتاز ببعض التفلطح (انبعاجها عند القطبين وتفلطحها عند الاستواء) وهذا التفلطح ناتج من دوران الأرض حول محورها إضافة إلى تأثير الجاذبية المتفاوتة الناتجة من الشمس والقمر وبعض الكواكب السيارة الأخرى على الأرض]، وليس رؤية كروية الأرض ممكنة فحسب، بل تصويرها والبحث في مكنوناتها بواسطة علوم وتكنولوجيا الاستشعار عن بعد Remote Sensing Science & Technology ودراسة جغرافيتها واقتصادياتها والتجسس على حركة الإنسان.. الخ من بعد بل من مسافات شاهقة، من هنا فإن الأصرار على (تسطيح الأرض) المطلق، أي المنظور بالعين المجردة المقدر من مسافات شاهقة، إذ وصلت قدرة تمييز بعض الأقمار الصناعية إلى حدود الأمتار، لا بل السنتمترات بالنسبة

لأقمار التجسس (أي بعضها يقرأ ما نكتب). من هنا فإن الأصرار على (تسطيح الأرض) المطلق، أي المنظور بالعين المجردة بغير المقدَّر من مسافات بعيدة في الجو مع التقدير الفيزيائي المثبت (من خلال دراسة طيف الأشعة الكهرومغناطيسية المنعكس من الأرض أو المشتت أو الممتص)، يعني التمسك بظاهر اللغة أو بنيتها Surface Structure أما التركيب العميق لها: Deep Structure فهو الأهم والذي يحوّل (النظر إلى) من العين المجردة إلى وسيلة (أخرى) تُمكنّ الإنسان من تقدير شكل الأرض بوضوح ودقة تصل إلى الأمتار أو أقل، والشيء نفسه يقال عن ذبذبات السمع، مما لا يستطيع الإنسان سماعه لا يعني أنه غير موجود أو موجود ولكن على صورة غير صحيحة طبقاً لواقعه! إن إعجاز القرآن الكريم في استعمال اللفظة الواحدة يدعو إلى الخشوع والحمد معاً، ففي قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ في [آل عمران:١٤٣]، نلاحظ الفعل (رأى) في (رأيتموه) والفعل (نظر) في (تنظرون) ونقدر المعنى كما نفهم قبل الرجوع إلى التفسير! فنجد صعوبة جمة في تحرير تفسيرٍ ما لهما وهما بهذا الوضع المتجاور والمتلازم، ولكنَّ تفسير المفسرين لا يركن إلى اللغة فقط، أي إلى المعنى القاموسي بل يلوذون بالمغزى الذي عرّفه رسول اللّه ﷺ ونقله الصحابة الكرام والتابعون، من هنا نجد أن المقصود بجملة: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ عند الجلالين قيل غيرهما هو: [(فقد رأيتموه) أي سببه الحرب (وأنتم تنظرون) أي بصراء تتأملون الحال كيف هي فلمَ انهزمتم؟ ونزل في هزيمتهم لما أشيع أن النبي قُتل وقال لهم المنافقون إن كان قُتل فارجعوا إلى دينكم) وفي اقتران آخر بين الفعلين (رأى ونظر) نقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، فكيف نفهم (أرني أنظر إليك)؟! يقول الجلالان في ذلك [(قال ربّ أرني) نفسك (أنظر إليك، قال لن تراني) [هنا نرى الفعل (أرني) لزم مفعولاً به محذوفاً قد رآه (نفسك)، وهذا حذف بلاغي إن صح، وهو صحيح كما

نرى، أما (أنظُرُ إليك) فقد بقيت على سياق المعنى اللغوي الذي يتطلب أداة الرؤية والنظر وهي حاسة البصر: العين، مع التأمل أو من دونه.

– من جهة أخرى يمكن الاستدلال باللغة ظاهراً وبالعلم محتوى من غير موضع كروية الأرض مما جاء في القرآن العظيم كما هو الحال مع الشمس والضياء المرتبط بها صفة لها، ففي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ [يونس:٥]، إذ أن هذا الضياء لم يمنع العلم من (تفسيره)، وهو لفظ عام هنا تغيرت باللون الظاهري فقط، إذ الشمس [كما نعلم «من العلم بعد نزول الآية بقرون» بأنها المصدر الرئيسي للطاقة التي تحفظ الحياة على الأرض ومن دونها يكون وجود الحياة مستحيلاً. وهي ذات نشاط نووي متواصل تتمركز فيه كميات كبيرة من الطاقة ويصل جزء بسيط من هذه الطاقة إلى الأرض فتمتصها النباتات لكي تزودنا بالغذاء «بمساعدة الكلوروفيل مما كشف عنه العلم بعد نزول الآية بقرون عدة أيضاً»، وتحفظ في الطبقات الفحمية لكي تعطينا الوقود، وهي التي تزودنا بالحرارة التي تحفظ دفء المحيطات. لهذا كانت الطاقة الشمسية مهمة جداً في حياتنا. إن هذه الطاقة تنشأ عرضياً من الاندماج النووي في مركز الشمس حيث يتحول الهيدروجين إلى غاز الهيليوم] وفي مراجعة الجملة الأخيرة نجد أن كل شيء فيها (جديد) على العقل العربي المسلم قياساً إلى ظرف نزول الآية الكريمة، بيد أن نظرتنا الصحيحة إلى هذا العرض تتضمن احتواء (كلمة) الضياء القرآنية (كل) هذه المعاني التي كشف عنها الإنسان وليست هي بعيدة عنه أو نقيضة له، بل أن الطيف الشمسي الذي يعطينا مجموعة ألوان إذا مر عبر أو خلال (موشور) زجاجي كما في (قوس قُزح) هي الضياء نفسه، أي أن الضوء ليس لوناً واحداً قط هنا! وهذه أعجوبة ثانية تستحق أن تجعل من جملة التكريم والتعظيم في: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ معجزة أي أن الإعجاز ينتقل من صنع الضوء لفظاً عاماً إلى صنع

الضوء بكل ما عرضناه أعلاه فيتعاظم التسبيح لله القدير العظيم، وإذا تداخلت مكونات الضوء وسرعته زدنا عجباً!

- إذن للكلمة مدلولات: لغوي لفظي أولاً وعلمي بعده، يكمل أحدهما الآخر ولا تنافر بينهما، بل تكامل، أي أن معنى (الكلمة) القرآنية (الفلكية-الفيزيائية) لابد أن تكون ذات مدلولين متكاملين، فالأرض المسطحة (للعين المجردة بعيداً عن معطيات العلم) و(الشمس ضياءً) في العين المجردة بعيداً عن كشوفات العلم لا يجزيان (الآن) كما كانا يُجزيان في السابق إلا بإضافة ما تفضل به اللّه سبحانه على عباده في استكشافات تحت قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، أي أن ما يقال في تفسير الجلالين إزاء ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ من قول: (ذات ضياء، أي نور) بخلط الضياء والنور من دون تمييز بين أصيل منبعث وثانوي منعكس بعيداً عن كل ما ورد في أعلاه لا يُعد كاملاً في الواقع، إلا أنه ليس بخطأ إلا من حيث المساواة بين الضياء والنور، أما (منع) كروية الأرض والابقاء على تسطيحها إطلاقاً فتلك مسألة لابد من تغييرها، واللّه أعلم.

جـ- نبقى مع الفعل (رأى) في الآية المعجزة ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ومعجزة هذه الآية في نتيجة فعل الرؤية، مهما كان معناه في ماضي السماوات والأرض، إذ يقول (الجلالان) في هذا الصدد: [(أَوَلَمْ) بواو وتركها (يرَ) يعلم (الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً) سداً بمعنى مسدودة (ففتقناهما) جعلنا السماء سبعاً والأرض سبعاً أو فتق السماء إن كانت لا تمطر فأمطرت وفتق الأرض أن كانت لا تنبت فأنبتت (وجعلنا من الماء) النازل من السماء والنابع من الأرض (كل شيء حي) من نبات وغيره أي فالماء سبب لحياته (أفلا يؤمنون) يبدو الفعل في جملة (أولم يرَ) مشكلتنا في اللغة، وتبدو كلمة (رتقاً) مشكلتنا في الفلك في

نشوء السماوات والأرض! فإذا جاء (الجلالان) بمعنى (يعلم) مقابل (ير) فإن ذلك مما يؤيده التوثيق المعجمي العربي كما في المختار: [رأى –(الرؤية) بالعين تتعدى إلى مفعول واحد وبمعنى العلم تتعدى إلى مفعولين و(رأى)، يرى (رأياً) و(رؤية) و(رَاءَة) مثل راعة..] **وفي المنجد:** [رأى –(رأى يرى رأياً ورؤية وراءَةً ورئياناً) نظر بالعين أو بالعقل، وأصل يرى يَرْأَى، ولا تستعمل على أصلها إلا نادراً. والأمر منه رَ. يقالُ «ياترى» و«ياهل تُرى» أي يارجل هل ترى وتظن. ولم يُسمع مضارع رأى بمعنى الظن إلاّ مجهولاً] أما (رتَقَ) **فلقد جاء في المختار** [(رتَقَ) الفتْقَ من باب نصر (فارْتَتَقَ أي التأَمَ. ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾].

وفي المنجد: [رتَقَ – (رتَقَ رُتقاً رَتقاً) الثوب: ضد فتَقَهُ. رتَقَ الفتْقَ: أصلحه.

رتقَ الشيء: سدّه وأغلقه] **ومن ذلك تفسير الجلالين.**

– **في مذاكرة مغزى هذه الآية وغايتها نقف حائرين إزاء افتراض (علم) الإنسان أو (تعقله) نحو مسألة (الوحدة التكوينية) الأولى بين السماوات (جمعاً) والأرض، إذ من أين يتأتى لأعرابي أو عربي «جاهلي» أن (يعلم) بها أو (يعقلها) وليس له من (علم) الكون وجيولوجيا أو فيزياء الكون وتاريخ الكون إلا ما في الكتب السماوية التي سبقت القرآن وهو لم يقرأها ولم يتعامل بها؟ وهي لم تأت بتفصيل ليس به حاجة إلى تأول وتوثق؟ في إشكالية أخرى: هل إن الأرض كانت جزءاً من جزء؟ أم جزءاً من كل؟ أي هل أن الارض والقمر مثلاً كانا وحدة واحدة، أو الأرض والشمس، أو الأرض والمجموعة الشمسية كلها ثم الأرض والشمس والمجرة التي ينتميان إليها ومن بعد ذلك (انفتقت) عن كل منها حسب كل حالة؟ في علم الفلك ثمة نظريات Theories وفرضيات Hypothesis تربط الأرض بكل من تلك الكينونات السماوية إلا أن جملة القرآن الكريم واحدة شاملة في بنيتها مع فرص متعددة للتفسير الفلكي، بل حتى يمكن الرجوع بها إلى أصل الكون كله،**

لأن السماوات والأرض قد لا تعني كل الكون في أحد الاحتمالات، وأن نظرية الانفجار الكبير The Big Bang Theory أقوى مرشح لهذا التأويل رغم أن (من المشاكل التي تواجه نظرية الإنفجار الكبير، هي ماذا كان قبلها؟ وخلالها؟ وهل للزمان والمكان معنى قبلها. هذه الأسئلة ما زالت تحير العلماء...) إلا أن الفلاسفة تعاملوا معها على صور مختلفة وحادة أحياناً.

ما يعنينا هنا هو هل (الانفجار الكبير = ففتقناهما)؟ الجواب كلا؟! إذ ثمة أمور أخرى يجب إضافتها فتصير المعادلة على نحو مبسط:

(الإنفجار الكبير ((فتقُ) الأرض عن السماوات (تجزئة السماوات إلى مكوناتها الفضائية).

وأن (تخصيص) الأرض بالذكر لأهميتها الحياتية والإنسانية التي أرادهما اللّه لها كما نرى، وإن أي افتراض (الكينونة) الوجود قبل (خلق) السماوات الموحدة مع الأرض ومن ثم فتق الأرض عنها يقود إلى سؤال: وماذا كان قبل (ذلك)؟ من هنا فإن انطلاقة الدارس (المؤمن) تبدأ من وحدة السماوات والأرض ثم انفصالهما بعضها عن بعض.

إذ في هذا «التوقف» التأملي انتصار لعلم الفلك في ظل النص القرآني تماماً، وما جاوز مضمون النص القرآني أساساً على أي وجه كان.

- في لجوء القرآن الكريم إلى الفعل (يرى) بسؤاله التهكمي: (أولم يرَ)، إزاء المشركين، جانب بلاغي مستترٌ من السخرية Irony حيالهم! لأنهم ادّعوا العلم بكثير من الأمور حتى جعلوا منها (أساطير وحقائق) بمعايير خاصة بهم إلا أنهم أمام هذا السؤال وقفوا حائرين، فهم إن قالوا: لا نعلم، وصموا أنفسهم بالجهل، وإن قالوا: نعلم، طولبوا بالتفاصيل والإيمان بقدرة اللّه ووحدانيته معاً! وكلا الحالين

صعب عليهم يومئذٍ! وهذه تعطي قوة النص القرآني هنا.

– في الجانب الدلالي من معنى (رتقاً) = سداً أو مسدودةً، ثمة آراء (عامة) يمكن استنباطها من هذا الموقف (الخاص)، إذ من الممكن التعويض والإضافة مع الحفاظ على مدلول (سداً أو مسدودة) وفي الأصل (رتقاً)، وهذا المسعى يمثل جزءاً من التحديث الذي تهدف إلى ترويجه والمطالبة به لتحقيق خضوع العلم للنص القرآني في الواقع، فلو وضعنا كلمة (كتلة) أو (مادة) على محمل عام من مثل (كانت السماوات والأرض كتلة واحدة) أو (كانت السماوات والأرض مادة واحدة) فلا نحسب أننا نقع في تناقض مع التفسير اللغوي أو الدلالي للفظ القرآني الكريم، ولكنها تربح الكثير وعلى نحو مباشر عندما يقترب (العلماء) من هذا التعبير (العام) من خلال تفاصيل محتوى (الكتابة الموحدة) أو (المادة الواحدة) على أنها [جسيمات المادة «التي» ربما تتكون من الإلكترونات والبروتونات والنيوترونات والنيوترينو... بحالة مستقلة، بعضها عن بعض] لا حظ كلمة (ربما) المجازية الجوازية معاً عند العلماء الذين افترضوا هذا الأمر وهم (كامو وتولمان وروبرت دك)، إذ ليس ثمة شيء مؤكد بالتجربة أو العقل، ثم في سلسلة (افتراضات) تتحول بها الكرة النارية الهائلة من (الأشعة والمادة) بكثافة غير محددة إلى عناصر جديدة... مع إنخفاض درجات الحرارة (عبر ملايين السنين) .. حتى تبلور الكون الذي نرى ونعلم الآن، وما أقل ما نرى وما أبسط ما نعلم الآن وفي المستقبل!

– إذن، لانرى بأعيننا رؤية حسب، بل نعلم بعلمنا ما تعجز عنه الرؤية البصرية في الواقع، وأن الأرض لم توجد هكذا وحدها منذ البدء، بل حتى نزول آدم عليه السلام عليها، أما (كيفية) ارتباطها بالسماوات وانفصالها عنها فتبقى (مشكلة) علماء الهيئة الذين يبغون البحث في الاسرار وما منعهم اللّه سبحانه إلا عن ما يؤدي إلى الشرك به، والعوذ باللّه!

- في المعنى الثاني لـ (رتقاً ففتقناهما) وردت أداة الفصل: (أو)، أي أن السماوات والأرض كانتا منفصلتين بعضهما عن بعض إلا أن السماوات لا تمطر والأرض لا تنبت: وفي قوله تعالى (ففتقناهما) أي جعلنا الأولى تمطر والثانية تنبت، إلا أن تفسير (ابن كثير) يجمع المعنين معاً، أي (كانتا موحدتين) ففصل الواحدة عن الأخرى (و) كانت السماء لا تمطر فجعلها تفعل وكانت الأرض لا تنبت فأمرها به، ومن الواضح أن (أو) قد تأتي بمعنى (و) أحياناً، مع ذلك نود التوثق من موقفنا المعلن باحتواء الآية الكريمة على المعنيين معاً وعلى نحو متكامل، وهو كذلك، إذ هو الصحيح في ظننا طبعاً، لعموم الاعجاز وعظمه.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی